الحوار بين عالمية المعرفة وخصوصية الثقافات والشعوب

أ/ مناد طالب
قسم الفلسفة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الجزائر

ملخص:

الحوار أولا هو ما كان قائما بين اثنين أو جهتين، يحترم أحدهما الآخر ويقدّره ويحاوره بالحجة العقلية التي هي أهم عامل مشترك بين البشرية كافة؛ فهي، كما قال ديكارت (Descartes):
"أعدل قسمة كانت بين الناس".ومتى استعملت هذه الحجة بالكيفية والإطار السليمين لا يمكن لها أن تنتج غير الحق، والحق لا يرده إلا ظالم لنفسه أو متكبّر...

فالحوار إذن حفر في الفكر البشري عن الحق أو الحقيقة لترتد إلى هذا الإنسان نفسه وتجعل منه إنسانا عالميا في علمه، في أفكاره، في أخلاقه.. وقد تجعل منه، في يوم ما، عالميا في دينه.

من هنا كان الغرض من هذا البحث محاولة ضبط شروط وآداب ووسائل ومواضيع وغايات كل حوار يريد أن يكون جادا ومنتجا. إلا أن هذا الحوار لا يمكن له أن يحقق هذه الغاية النبيلة إلا إذا راع المعرفة في بعديها :البعد العلمي القائم على وحدة وعالمية القيمة، والبعد الخصوصي للثقافات والشعوب القائم على نسبية القيمة والتنوع في الطرح وحيث مرجعية الاقتناع تعود فيه إلى الفرد وحده.

Résumé:

Le dialogue, en premier lieu, se fait entre deux personnes ou deux parties qui se respectent mutuellement, et se basent uniquement sur la preuve rationnelle, car, comme disait Descartes :«Le bon sens (La raison) est la chose du monde la mieux partagée ». L'utilisation correcte de cette preuve ne peut produire que la vérité qui ne peut être rejetée que par un injuste ou un arrogant....

En effet le dialogue est une manière de creuser dans la pensée humaine pour en faire jaillir la vérité qui se reflète par la suite sur l'humain lui même et fait de lui l'universel dans son savoir, dans ses idées, dans son éthique, et un jour peut être universel dans sa religion.

Depuis cela, l'objet de cette étude est de préciser les conditions, les conduites, les moyens, les sujets et les fins de chaque dialogue qui se veut sérieux et laboureux. Mais ce dialogue ne peut atteindre cette fin que s'il prendrait en considération la connaissance dans ses deux dimensions: la dimension du savoir qui est basée sur l'unité et l'universalité de la valeur, et la dimension particulière des cultures et des peuples qui est basée sur la relativité de la valeur et sur la diversité, et ou la référence de convaincre revient uniquement à l'individu.

الحوار عادة هو تجاذب أطراف الحديث بين اثنين أو طرفين، أيا كان هذان الطرفان. هذان الطرفان قد يتمثلان في شخص ما وهو يحاور ذاته وهو ما نطلق عليه اسم "الحوار مع الذات" . وقد يتمثلان في الحوار بين الأستاذ والتلميذ أو الطالب وهذا ما يمكن تسميته "بالحوار البيداغوجي". وقد يمثل الطرفين أفراد أسرة ما أو أفراد مجتمع ما، وقد يكون الحوار بين الحاكم والمحكوم، وكل هذه الأنواع من الحوارات يمكن أن نطلق عليها اسم "الحوار المدني" أو "الحوار الداخلي" لأنه لا يتعدى حدود وطن أو أمة واحدة تجمعها هوية واحدة. وقد يتعدى الحوار هذا إلى ما بين الهُوّيات فيكون بين الحكومات أو بين الدول والشعوب، وفوق هذا وذاك بين الحضارات؛ وقد ذهب أحد الباحثين إلى القول:" الحوار قبل كل شيء سلوك، يتخذ ثلاثة أشكال: سلوك تجاه الذات، وسلوك تجاه الآخر، وأخيرا سلوك متبادل" (Michel Bon, 1966).

ولكي يكون الحوار جادا وحقيقيا، واعيا ومسؤولا وناجحا فإن :" وجود قطبين متمايزين من الشعور هو أمر ضروري لأي حوار: الشعور بوجود الذات ومسؤولياتها. والشعور بوجود الآخر كطرف محاور" (Berrada M.,1966). وعلى هذين القطبين المتحاورين أن لا يطغى أحدهما على الآخر ولا أن يفكرا في مثل هذا السلوك، لأن مجرد الشعور بالطغيان من أحد الطرفين هو فشل للحوار:" فلا يمكن أن يكون هناك حوار إلا إذا كان متسما بالحرية وبين رجال أحرار"(Michel Bon, 1966). فالحرية إذن شرط ضروري لتحقيق أي حوار مفتوح، عادل ومثمر، ولعل هذا ما دفع بالفيلسوف دولوز G. Deleuze إلى القول:" الحوار هو، بكل بساطة، رسم خطوط لمصيرنا"(Deleuze G.,1966) أي أن نتائج الحوار لا يمكن بحال من الأحوال أن تسبق الحوار ذاته ولا أن تضبط أو توجه مصيره سلفا، بل المصير ذاته هو في صيرورة مستمرة لا يقف على ثبات، كما يقول ديمقريطس:لا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين.. وبالتالي فالحوار هو التنازل عن فكرة إرغام الآخر على أن يفكر كما أفكر أو أن أضع له الغاية قبل المقدمات أو أن ألزمه إياها وهو لها كاره:"والحوار لا يكون ممكنا إلا إذا كنا مختلفين... ولا حوار إذا كان زخم الكلام يملى في اتجاه واحد"(Michel B., 1966).

غير أن هذا لا يعني أن الحوار لا يقام إلا في حالة السلم و المهادنة بل هو الوسيلة الفعالة في تخطي الصراعات والحروب وتحقيق السلم

والمهادنة أو لتغيير علاقة ما من "علاقة صراع وتدمير" إلى "علاقة سلم وبناء"، وقد يكون في الحوار ذاته نوع من المواجهة، المواجهة التي قد تتخذ مسارات مختلفة وذلك بحسب الأغراض المسطرة لها.

ولذلك فمن شروط الحوار أيضا أن لا يكون الطرف الآخر رافضا للحوار أو لا يؤمن بمؤسساته:" فمثلا يستحيل أن نحاور مستبدا أو فاشيا يعتقد أن الديمقراطية وباء ويؤسس لكل العلاقات مع الأفراد على أساس التبعية والاستجابة العمياء مهما كانت تبريراتها... وإذا انحرف الحوار إلى حد انعدامه، فإن العلاقات بين الأفراد لا يمكن أن تكون إلا جسمانية وتجلب العنف، والتمرد والحرب"(Michel B., 1966). فالحوار إذن هو الوسيلة الفعالة التي تسمح بمعالجة القضايا وفك الخلافات بطريقة جذرية إذا ما تم وفق مقتضياته.

وللحوار أهداف، وأهدافه وأغراضه تتعدد وتتنوع بتعدد وتنوع المواضيع والميادين. أما أهدافه العامة فنذكر منها تحقيق التغيير الإيجابي الذي شملته الآية الكريمة:"إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"(الرعد،11). ولا نحسب وسيلة تغيير الأنفس هنا إلا الحوار الجاد والهادف بجميع أنواعه وعلى جميع المستويات والميادين بدءا بالحوار النفسي إلى الحوار مع الآخر. وكثيرا ما نجد طبيعة البشر تأبى التغيير وتتشبث بما اعتادت عليه إما استعلاء وتكبرا وعنادا وإما خوفا من أن الحقيقة تكون على غير ما هم عليه، ومثل هؤلاء كمثل أقوام ذكرهم القرآن وهم يدعون إلى التغيير فأبوا:" بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ.وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ"(الزخرف،22،23) ولهذا نجد عادة أن:" أول سلوك نسلكه تجاه الآخر المحاور قولنا:"أنت على خطأ" ونحن على ثقة من أمرنا ونريد التأثير في الآخرين. والحقيقة أننا نخاف من أن يؤثر فينا ونخشى التغيير في أفكارنا وأحاسيسنا. في حين قبول الحوار يقتضي قبول مغامرة التغيير فينا"(Michel B. 1966).

مما سبق يتضح أن الحوار في الحقيقة من أهم أهدافه أنه يساعدنا على تشخيص أنفسنا وكشف قصورنا الذي لا يمكن تجاوزه ربّما إلا من خلال تكاملنا مع الآخر، وبالتالي فالتعامل بالحوار مع الآخر ليس بالضرورة تعامل التابع والمتبوع بل إذا كان الحوار حرا ومفتوحا وبين حريّن فإنه يكون الوسيلة التي بها يحدث التغيير وتتحقق الحقيقة المنشودة التي لا يمكن لعاقل

أن يدفعها إذا ما كانت كذلك، ولهذا قيل:" في الحوار... هناك دائما رابحان، فالشريكان كل منهما يستفيد من الآخر"(Michel B. 1966).

ومن فوائد الحوار أيضا أنه يربي الإنسان على طريقة حضارية في حل النزاعات الناشبة بين أفراد جنسه ويجنّبه الطرائق الوحشية ويرفعه إلى مستوى احترام الإنسان والإنسانية جمعاء؛ وإلى هذا وذاك:" فإذا كان الحوار يسمح بتبادل الأفكار ونقدها، فإنه يفعل أكثر من ذلك: إنه يولّد الأفكار الجديدة... وبالتالي فالحوار يولّد الحقيقة ومن ثم يساهم في إعدادها النوع البشري كله قديمه وحاضره ومستقبله. فهي تبنى على أساس التكامل والتقارب فيما بين كل أجزائها المتواجدة على مستوى كل شخص منا"(Michel B. 1966).

ومن دون شك فتوليد الأفكار الجديدة وبناء الحقيقة وإظهارها للناس، إذا كان فضلها يرجع إلى الحوار، فإن هذه الأهداف، وبلا ريب، يتولد عنها تحقيق أهم نعمة يطمح إليها الإنسان العاقل، إنها نعمة السلام:" فبالكلمة نبعد الفعل الجسدي. والسلام بين الطبقات الاجتماعية، وبين الأمم، وبين الغرب والعالم الثالث، وبين الأيديولوجيين يبنى أيضا بالحوار. هذا الأخير، إذا تم في إطار إنساني، وعلى مستوى كل التبادلات الدولية: سياسية، وعلمية، واقتصادية، وسياحية، وتعاونية...الخ فإن هذه المستويات ستكون الضامن الأكبر للسلام"(Michel B. 1966) .

ثم إن الحوار داخل البلد الواحد أو الأمة الواحدة، أو فيما بين الأمم سيحقق مبدأ إنسانيا هاما؛ إنه مبدأ الشورى أو ما يعرف اليوم بمبدأ الديمقراطية: فتحقيق الشورى أو الديمقراطية في البلد الواحد أو الأمة الواحدة يضمن التقارب والتكامل والتكاتف أمام التحديات الاجتماعية...تحقيق الشورى أو الديمقراطية بين الأمم يضمن التجانس والتعاون ويبعد شبح الحروب والنزعات المدمرة وشبح المجاعات والأمراض التي كثيرا ما نجدها أكثر تدميرا لبني البشر من الحروب المدمرة، أو قل:" بكل بساطة [وفي تلازم متعاكس] الديمقراطية (أو الشورى) هي مشاركة الكل في الحوار الاجتماعي، الديمقراطية(أو الشورى) هي الحوار"(Michel B. 1966).

وهكذا يتبيّن لنا أن الحوار إذا ما وضع في إطاره الإنساني السليم وطبّق في جميع المجالات وفي كل الأوقات، إذا تم هذا فهو يعكس وبكل بساطة وبكيفية سليمة الطبيعة البشرية الفطرية التي تأبى الثبات. فبه تبني البشرية جمعاء مجتمعها ومصيرها المشترك ومن دونه ترهن مصيرها

ومستقبلها... ولهذا فنسبة نجاح الحوار أو نسبة تحقيق أهدافه تتوقفان أيضا على نسبة تحقيق هذا الحوار نفسه.

وأولى هذه الآداب، بعد النيّة الصادقة في كشف الحقائق أو في حل المسائل العالقة بالحوار، هو الشعور بأن الآخر طرف في الحوار ووزنه بقدر وزننا فبي المعادلة:" لأن التحاور مع الآخر، يعني الشعور بوجوده أولا"(Frank P. 1966). فإذا اعتبر الذي هو في الطرف الآخر مجرد متلق للأفكار، فإن هذه الأفكار ستتحول إلى مجرد أوامر وهذا الآخر إلى مجرد منفذ لما يرغب وما لا يرغب، والحوار إلى مجرد استعباد، وبالتالي:" فالأمر يقتضي أن نكون ناضجين، أي أن المسائل التي تطرح علينا تكون مسائل وليست تهديدات، وأن تكون معقلنة ولا تترك لتلاعبات الدوافع العاطفية: الخوف، غريزة السيطرة، الغضب..."(Michel B. 1966).

والثانية منها تتمثل في آداب الاستماع إلى الآخر، الاستماع على أساس تتبع الحقيقة ولا يهم على لسان من تتكشف الحقيقة، لأن من المتحاورين من يتتبّع فقط، عند الآخر، ما يمكنه من متابعة بناء تدليله هو، وهذا السلوك لا يجعله يركز إلا على ما يفكّر فيه هو، وهذا من دون شك يناقض منطق الحوار الذي يقتضي منا أن نكون متفتحين على الآخر وأن نعيره كل اهتمامنا وهو يعرض أفكاره:" هذا يعني أنه لكي يكون حوار فلا يجب علينا أن نستمع لذواتنا وهي تتحدث، ولكن، وعلى العكس من ذلك، علينا أن نتقن سماع الآخر. إنها مسألة تربوية"(Michel B. 1966).

ولهذا فعلى المتحاورين أن لا يتعالى الواحد على الآخر، وأن يستقبل الواحد منا الآخر على أساس:" التساوي، من غير أبوية ومن غير تنازل ولا تصنع ولا إعجاب بالنفس... فالحوار يتطلب المعاملة بالمثل والاحترام المتبادل لحرية الآخر... ولا ينبغي ، في الحوار، التفكير في القضاء على الشريك"(Michel B. 1966).

أدوات وأهمية الحوار:

إذا تقرر ما سبق، فإنه يتبيّن لنا ابتداء أن لا أحد يدّعي امتلاك الحقيقة والصواب في القول والعمل ما لم يقم دليل على ذلك.. ولما كان الفكر، في عمومه، يمتاز بالنسبية في الطرح، وكل أمة تملك فكرا تدّعي ـ وبناء على ما تملك من دلائل في نظرها ـ امتلاك الحقيقة والصواب فإنه يشرع لهذا الفكر ابتداء أن يطمح في أن يصير فكرا عالميا وأن يصير الفكر

الأنموذج الذي ينبغي تصديره لغيره من البشر حتى تعم المصلحة والسعادة. وبالتالي ، ومن هذه الزاوية، فإن كل فكر مشروع له أن يطمح في تحقيق العالمية والعولمة، لكن تحقيق هذا الطموح لا يمر إلا عبر حوار يهتم بعرض الطروحات الفلسفية والأخلاقية والسياسية والعلمية، ويسعى إلى إقناع الآخر، لكن ليس عن طريق الخطاب بل بمقابلة دلائل هذه الطروحات المتعاكسة، ولا يمكن بحال من الأحوال إقصاء فكر أو ازدرائه ابتداء، بل الوحيد الكفيل بعملية التصفية هو المعيار الموضوعي ، فما هو هذا المعيار الموضوعي الذي تلوى له الرقاب وتسلم له ، إنه العقل الصريح، العقل الذي قال عنه ديكارت:" العقل الصريح هو أعدل قسمة كانت بين الناس."(Descartes R. 1995)، مبادئه فطرية ومن أهم مبادئه مبدأ عدم التناقض، المبدأ الذي ترتد إليه جميع باقي مبادئ العقل والذي قال فيه أرسطو:" المبدأ الأكيد بامتياز هو الذي لا يقبل الخطأ. وعليه فهذا المبدأ يجب أن يكون أعرف المبادئ لأننا دائما نخطئ فيما لا نعرف، وأن يكون المبدأ الذي ليس فيه من الشك شيئا، لأن المبدأ الذي لابد من امتلاكه لمعرفة كل شيء ليس بافتراض. وأخيرا فالمبدأ الضروري معرفته لمعرفة أي شيء يجب أيضا امتلاكه بالضرورة للدخول في أي نوع من الدراسة. ولكن هذا المبدأ ما هو؟ إنه ما سنقوله: إنه من المستحيل أن المحمول نفسه ينتمي ولا ينتمي إلى نفس الموضوع، في نفس الوقت وتحت نفس العلاقة."(Aristote, 1940).

إذن، من دون شك، إن أهم أداة يستخدمها الحوار السليم هو العقل الصريح المجانب للهوى أبدا وهو المؤهل الوحيد حتى في ضبط وتأليف ما تنتجه التجارب الحسية من حقائق علمية. فبالعقل الصريح وحده يتحقق الطرح الموضوعي للقضايا، وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم "التي هي أحسن"، فالحوار القائم على المجادلة "بالتي هي أحسن" هو حوار قائم على قوة الحجة العقلية لا على قوة القوة المادية التي تبقى مدمّرة حتى في أحسن حالاتها. ومن غير شك أن هذه القوة متى استعملت بالكيفية وفي الإطار السليمين لا يمكنها أن تنتج غير الحق ولا يرد الحق إلا ظالم أو متكبر جاحد...

فالحوار إذن حفر في الفكر البشري عن الحق والحقيقة، وفق الشروط والآداب التي سلف ذكر بعضها، لترتد (أي الحقيقة) إلى هذا الإنسان وتجعل منه إنسانا عالميا في علمه، في أفكاره، وفي أخلاقه وقد تجعل منه في يوم ما عالميا في دينه.

ولما كان وجود الشعوب والقبائل الفاضلة من أهم غاياتها التعارف والتكامل ونشر العدل والسلم والفضائل كان الاتصال الثقافي الذي هو نوع من أنواع الحوارات من أهم الوسائل التي تحقق هذا الغرض الإنساني الهام، فهو نقطة تقاطع الحضارات أو قل هو أهم المعابر أو القنوات الضامنة لديمومة الحضارة الإنسانية إذ ما تفتأ أمة تتأخر حتى تنهض أمة أخرى مستلمة منها بالاحتكاك مشعل الحضارة ، فمن الحضارات القديمة إلى الحضارة اليونانية فالرومانية فالإسلامية فالغربية اليوم وهكذا دواليك.

فالحوار إذن تبادل معرفي وثقافي مباشر والاتصال الثقافي (ما بين الثقافات) هو نوع من الحوار غير المباشر وقد يكون مباشرا إذا ما أقيمت على إثره الندوات والمحاضرات والمناقشات الفكرية والعلمية في جميع ميادين الفكر والمعرفة وبهذا يكون الحوار عموما عمل يهتم بعرض الأطروحات الفلسفية والأخلاقية والسياسية والعلمية، ويسعى إلى الإقناع ، ليس من جانب واحد، كما يفعل الخطاب، ولكن بعرض حجج الأطروحات المتقابلة. وهذا العمل كفيل ببعث الحضارات وإرساء قواعد العدل والمساواة والسلم والتقارب والتعارف فيما بين الأمم والشعوب . أما ما كان فرضا بالقوة فهو يجابه بالقوة ويولد الصدام الدائم والكراهية المغذية للحروب والدمار الإنساني، ولنا في التاريخ البشري في هذا الجانب شواهد كثيرة.

وإذا كانت نتائج الحوار متفاوتة فذلك مرده إلى طبيعة المواضيع المعالجة أو المطروحة للأخذ والرد أولا.

فالحوار مثلا في مجال المعرفة العلمية والتعاون العلمي فهو محل اتفاق في الغالب ذلك أنه من مميزاته الموضوعية في الطرح ويهدف بالدرجة الأولى إلى خدمة البعد الإنساني من غير أن يميّز بين أبيض وأسود أو عرق وآخر..وهذا ما عبر عليه أحد الأطباء القائلين:"لا عرقك ولا ديانتك التي أريد معالجتها بل مرضك."، ولهذا نجد المنظمات العالمية المتخصصة التابعة لمنظمة الأمم المتحدة قد حققت (وهذا عكس منظماتها الأخرى) بعض النجاحات عبر العالم وقربت الأمم والشعوب من بعضها البعض ، وهي منظمات لم تعد تعترف بالحدود الجغرافية ولا العرقية، بل صارت تؤمن بالمجتمع أو القرية العالمية:"ونجاحها-كما يقول أحد الباحثين_ مردّه أولا إلى الطابع التقني للمواضيع المتناولة، ثم، في الواقع، إلى كون المنظمات الدولية المتخصصة التابعة للأمم المتحدة تعمل في ميادين حيث القيمة مسلم بها من طرف الضمير العالمي" (Frank P. 1966). أي أن نسبة نجاح الحوار متوقفة

على نوعية الحوار وعلى طبيعة موضوع الحوار، أو بعبارة أخرى نجاح الحوار يتوقف على طبيعة المعايير الحوارية التي تتراوح ما بين الذاتية والموضوعية والتي تخضع بنسبة كبيرة في تحديداتها إلى طبيعة المواضيع المطروحة للحوار. فبقدر ما تكون ذات طابع تقني بقدر ما تحقق من نجاحات إذا ما أريد لها ذلك والعكس صحيح. ومن هنا فإن الأمر بالنسبة لهذه المنظمات المتخصصة يعتقد أن لا تكون قائمة على مصالح ومنافع ضيقة أو ذاتية كمنظمة **الفاو FAO** التي من أهدافها القضاء على المجاعة ، ومنظمة الصحة **OMS** التي تعمل في مجال الصحة ومكافحة الأمراض عبر العالم، وبدرجة أقل منظمة **اليونسكو UNESCO** التي تنشط في مجال العلم والثقافة، ذلك أن هذه المنظمات استطاعت على الأقل أن تقيم في ميادين معيّنة، حوارا بين شعوب المعمورة.

كل هذا جعلنا نخلص إلى نقطة هامة مفادها أن الحوار الناجح المحقق لأغراضه هو ذلك الحوار الذي يعتمد على قوة الحجة لا حجة القوة ، بمعنى أن قوة الحجة تجعل من القيمة ذات بعد عالمي والمعرفة الحاصلة منها لا تكون إلا كذلك.

والمعرفة هذه التي هي عالمية بحكم عالمية معاييرها (العقل أعدل قسمة بين الناس) فإنها لا تتعارض وخصوصية الثقافات والشعوب. فالشعوب تختلف عن بعضها البعض بحكم الموقع والمناخ كما يشير إلى ذلك علماء الاجتماع ومنهم ابن خلدون(ابن خلدون،1979) فضلا عن العرق نفسه، واختلافها هذا يفضي من دون شك إلى اختلاف في العادات والتقاليد والثقافات. وبهذا فالثقافات لا يمكن إزالتها واستبدالها بغيرها كلية، فهي شبيهة بالفطرة التي تأبى الزوال، لكنها مع ذلك فهي مرنة تحمل في ثناياها قابلية التطور والتغير نحو الأفضل من دون قطيعة تامة لأن في القطيعة التامة تيه وربما فناء، ولهذا كان اتصال الثقافات بحكمه نوع من الحوار أولى به أن يفكر فيما تتقاطع فيه الثقافات من إيجابيات إنسانية أو يعمل على تثبيتها وتطويرها بدلا من أن يلجأ القوي إلى تصدير أنموذجه الثقافي إلى الغير بالقوة (بشتى أنواعها) وبحجة القوة أي لأنه الأقوى بدلا من قوة الحجة. والثقافة أشبه بالنسق الذي يرفض العناصر التي لا يمكنها أن تتكيف مع مبادئه العامة.

ومنه فالمعرفة العالمية قد تتشكل وتتنوع بتشكل وتنوع الثقافات والشعوب من غير المساس بجوهرها. ألا ترى مثلا أن شكل المصنوع

يكشف لنا في الغالب عمن هو وراء المصنوع ، هذا فضلا عن الصناعات التقليدية التي هي بمثابة الحدود الجغرافية بين الشعوب وثقافاتها.

ولهذا فالحوار العلمي إذا كان مضمون النتائج لأنه مبني على معايير عالمية أي العقل العالمي فإن الحوار أو الاحتكاك الثقافي مباشرا كان أو غير مباشر، فهو مع ما فيه من الموضوعية فهو يمتاز أيضا بجانب من الذاتية، هذه الذاتية هي التي تضفي عليه صبغة الخصوصية التي تأبى الذوبان وهي مكمن المقاومة ومربط الفرس وهي تمثل جزءا هاما في هوية الشعوب .

ومن هنا فحوار الثقافات بجميع أنواعه لكي يحقق نجاحات عليه أن يحاكي في طرحه طرح المعرفة العلمية من حيث الموضوعية وطرق الإقناع. فكثيرا ما نجد مظاهر ثقافية منتشرة عند مجتمع هي تمثل انحلالا وتفسخا أخلاقيا عند مجتمع آخر. فالتبرج إذا كان علامة حضارة فهو انحلال خلقي في المشرق والعالم الإسلامي، لكن مع ذلك فالمظاهر الثقافية المشتركة كثيرة وهي عامل مهم لدى جميع الشعوب وهي حجر الزاوية الذي ينبغي أن يبنى عليه التقارب والتعارف والتكامل فيما بينها من غير فرض لأنموذج على آخر، بل التحول والتغير يترك للإقناع.

فالثقافة السياسية مثلا إذا كان فيها من الخصوصيات ما تأبى القرية أو المجتمع العالمي (المواطنة والسيادة)، فهي قابلة لأن تحتضن مثلا فكرة الديمقراطية الأصيلة لا المزيفة لأنها فكرة قابلة لأن تحتضن على المستوى العالمي لا لشيء إلا لأنها تقوم على قوة الحجة التي تخضع لها كل العقول الصريحة. فالمجتمعات الغربية تتخللها مجتمعات غير غربية مصغّرة (الجالية المهاجرة) تتمتع بالديمقراطية وتمارسها ومع ذلك فهي – رغم صغرها – لم تستغن عن الكثير من ثقافتها الأصيلة وعاداتها وتقاليدها. فلا المجتمع الغربي استطاع " ابتلاعها " ولا هي انسلخت من ثقافتها التي هي جزء من هويتها، وهذا أكبر شاهد على أن من الثقافات ما هو خاص وغير قابل للزوال. فالاتحاد الأوروبي اليوم لم يقبل بعضوية تركيا لا لشي إلا لاختلاف في الثقافة (وهو يطالبها بأن تتخلى عن الكثير والمهم من ثقافتها) ذلك أن المجتمع الديمقراطي المسيحي يقلقه الاتحاد مع المجتمع الديمقراطي الإسلامي. فالمسيحية في الاتحاد الأوروبي هي من أهم عناصر هويته والإسلام في نظرهم خطر على هذه الهوية بدليل أن الكتلة المسيحية دون الكتلة الاشتراكية في الاتحاد الأوروبي هي التي تعارض هذا الانضمام إلا بشروط ومن شروطها تخلي تركيا عن "إسلامها" ولو جزئيا.. وهذا النوع من

الحوار لا يراد له أن يكون حوارا متوازنا وحرا وبين رجال أحرار، ويقوم على نوايا مسبقة ظاهرها اقتصادي و باطنها ثقافي الغرض منه المساس بهوية الشعوب. ولعل هذا الرفض المتنامي لدى القطب المسيحي في الاتحاد الأوروبي هو ناتج عما عبّر عنه أحد الباحثين بقوله:" إن أول سلوك نسلكه تجاه الآخر هو قولنا:" أنت على خطأ". ونرى أنفسنا على يقين، ونريد أن نؤثر في الآخرين. لكننا، في المقابل، نحن خائفون من أن يؤثر فينا الآخر، وخائفون من أن تغيّر أفكارنا وأحاسيسنا. والصواب في أن الحوار يعني القبول بمغامرة تغيير أنفسنا"(Michel B. 1966).

والواقع التاريخي للعنصر البشري قد أثبت في الكثير من الحالات أن الإنسان لم يرتفع بعد إلى مستوى الإنسان العالمي، الإنسان الذي رفع شعاره حديثا في الغرب الفيلسوف الفرنسي سارتر(ولد في 1905) J. P. Sartre بقوله:" لا يمكنني أن أكون حرا إذا لم يكن كل الناس أحرارا"(Didier J. 1964) ، ولا إلى حوار حقيقي مفاده إسعاد الإنسانية بل لم يكن حوار إلا في ظل توازنات القوى المادية كما كان يحدث أثناء صراع العملاقين: الاتحاد السوفياتي من جهة والولايات المتحدة من جهة أخرى، أما:" العلاقات بين الغرب والعالم الثالث قد عرفت مرحلة الاستغلال ثم مرحلة الأبوة ثم مرحلة "المساعدة"(assistance).وفي أيامنا هذه صار مفهوم "التعاون" (coopération) يفضل على مفهوم "المساعدة"، وأخذت فكرة المساواة تظهر. وبدأ التحول من نوع من العلاقات الموضوعية الخالصة إلى نوع من العلاقات التي هي أكثر فأكثر ذاتية إذ كل بلد أخذ يهتم بحضارة وأفكار الآخر"(Frank P. 1966) وهذا الذي صار يعرف اليوم بمشروع ما بين الثقافات.

لكن هذا الاهتمام نريده بريئا لأن الدول القوية لا تحتك بالدول الضعيفة إلا وغزتها وفرضت عليها نمطها الاجتماعي خاصة في ظل حرب الإعلام غير المتوازنة. وإذا كانت العولمة اليوم قد قطعت شوطا في المجال الاقتصادي وإلى حد ما في المجال السياسي فإنها تقاوم بشدة في المجال الثقافي. إن فكرة الاتحاد الأوروبي في عمومها ما هي إلا ضرب من ضروب المقاومة والمعارضة لفكرة أمركة العالم خاصة في بعده الثقافي ذلك أنه قد تم ، تحت مظلة (اليونسكو) إقرار الإعلان العالمي للتنوع الثقافي في يوم 2002/11/02 بباريس لغرض وقف المد الثقافي الأمريكي وهيمنته الأمر الذي دفع بأمريكا إلى مراجعة أوراقها والعودة من جديد إلى (اليونسكو) يوم 2003/09/23، وكانت قد انسحبت منها في 1984، سعيا منها لوقف هذا

الإقرار، لكنها لم تجد من يقف إلى جانبها غير حليفتها الدائمة ورفيقة دربها إسرائيل. ثم الأدهى والأمر من هذا وذاك أن ما يصدّر للدول الضعيفة من ثقافات فلا يعدو أن يكون مجرد ثقافة استهلاكية أو ثقافات ساقطة تزيدها تخلفا إلى تخلفها أما ما كان جوهريا وعاملا من عوامل النهضة والتطور فهو بلا ريب محجور عنك لا سبيل إليه.

فالحوار الثقافي إذن، وبجميع أنواعه، بما في ذلك ما يعرف بالاتصال الثقافي، هو عامل مهم وجوهري في بعث الثقافات وإثرائها من جهة وعامل من عوامل التقارب والتعارف من جهة أخرى شريطة أن يتم بعيدا عن النوايا السيئة وفي إطار الاحترام المتبادل من غير هيمنة ولا إقصاء. ومتى كان التبادل حرا وتركت الكلمة لقوة الحجة كان التأثير للذي هو أقوم:" إن ما يطلقون عليه اسم "غزو إسبانية" لم يكن غزوا عسكريا . لقد كان عدد سكان إسبانية في ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة ولم يزد عدد الفرسان العرب في الأرض الإسبانية البتة على سبعين ألفا، وإنما لعب التفوق الحضاري دورا حاسما... فقد جلبوا معهم نظاما اجتماعيا أعلى جدا من النظام الراهن، وسرعان ما ظهروا محررين..."(روجي غارودي،1982) فالهيمنة والإقصاء يولدان المقاومة والنفور من الآخر مهما كانت حجة هذا الآخر ولعل تاريخ الاستعمار الغربي حافل بهذه الشواهد(روجي غارودي،1982). فليكن إذن الاتصال الثقافي (ما بين الثقافات) نوع من الحوار الهادئ، يهدف إلى إخصاب متبادل يعرف فيه كل طرف كيف ينفتح على حقيقة الآخر دون أن ينحلّ إليها . ولما كان حقل الرؤيا الغربي هو الذي كان ولا يزال يحدد العالم بحدود أفقه الخاص(روجي غارودي،1982) فإن كل محاولة جادة تهدف إلى بعث اتصال ثقافي أو حوار حضاري جاد وهادف يكون مآلها الفشل. "فالأنا" الفختية(نسبة إلى الفيلسوف الألماني فختة) ، انطلاقا من حقل الرؤيا هذا لا يزال الطريق إليها شاقا وبعيدا..

أما عن الحوار أو الاتصال في المجال الديني فالأمر فيه، من حيث المنهج خاصة هو الآخر، وحتى يكون مثمرا ، عليه أن لا يشهر حجة القوة وإلا ولدت في القلوب النفاق الذي هو نوع من المقاومة وهي من أخطر المقاومات لأنها تهدم البناء من حيث يعتقد أنها تبنيه؛ ولهذا فقوة الحجة هي الوسيلة المثلى ذلك أن الاقتناع يحصل بها وتنصاع العقول الصريحة لها . ومتى انصاعت العقول تحقق المراد وتحولت القوى المتحاورة إلى قوى متعاضدة بدلا من قوى متصارعة .

ولما كانت الديانات موجهة للناس كافة، لا تأبه لا بالحدود الجغرافية ولا باللون أو العرق البشري، كان مشروعا لكل دين أن يتوجه للعالمين . ولما كان الدين رباطا روحيا بين العبد وربّه قبل أن يكون معاملة أي رباطا بين العبد والعبد في إطار ما تمليه كليات الشريعة، كان لا بد أن يبنى هذا الاعتقاد على أساس الإقناع والاقتناع ، فـ" لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ"(البقرة،256) أي تبيّن للعقل ومتى ظهر الرشد أبعد الغي بمحض الإلزام الذاتي المبني على قوة الحجة .

والإسلام ، بحكم أنه أحد الديانات التي تخاطب كافة الناس ، مبناه يقوم على العقل. غرضه السعي إلى إظهار الحقيقة ناصعة ومنهجه:" ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ."(النحل، 125) إذن فـ :" لا يغيب عنا أن هذا الحوار هو من مناهج الإسلام فكريا، نظريا وعمليا نظريا يظهر حين عرض القرآن قضياه العقدية الإلهية، كذلك عرض مقابلها قضايا العقائد غير الإلهية، وفي حوار بليغ إطاره الحسنى.."(الفيومي محمد ابراهيم،بدون تاريخ)

ومن هنا كان لزاما على المسلم أن يبني نفسه أولا أي أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود، إلى ربانية الوجود كما يقول مالك بن نبي، ثم عليه أن يبدأ حوارا بينه وبين العالم الخارجي وبهذا تتجلّى شخصيته على حقيقتها أمام نفسه أولا ثم أمام الآخر ثانيا.

ولكي يكون هناك حوار حقيقي بين الأديان على حاملي الأديان أن يخرجوا من قوقعتهم وأن يتوجهوا نحو الآخر لا على أساس فكر مسبق قوامه "تحويل " الآخر، بل على أساسين هامين:

أولهما السعي وراء التعارف والتكامل، فهذا الأساس يجعل من الديانات تتجاوز الخلاف إلى ما هو مشترك بينها وتسعى إلى تنميته بغية إسعاد البشرية .

وثانيهما المجادلة بالحسنى(العقل) لمن هو شغوف بالحفر في المجال المعرفي والسعي وراء الحقيقة والأخذ بها أنى كانت ومن أي جنس جاءت كما يلاحظ ذلك الفيلسوف الكندي(الكندي،1950)، ولا إلزام إلا ما كان مصدره العقل الصريح من غير تحقير ولا ازدراء لما يمليه الآخر..فماذا يكون موقف "الأنا" عندما يخاطبه "الآخر" بقوله:" إننا نقوم في الجزائر بعمل

هو من أكبر الأعمال التي يمكن للشعوب أن تقدم عليها؛ إننا ننزع بقوة إمبراطورية من البربرية لنسلمها إلى الحضارة...إنهم يخرجون من تعاستهم، من جهلهم، من فساد أخلاقهم ليدخلوا في الإيمان، أي في حضارة فرنسا"!؟!(Veuillot L. sans date) أي حضارة هذه التي تكلم عنها هذا الكاتب في 1846م ونحن نعلم أنه عند استقلال الجزائر كان الشعب الجزائري يغرق في الأمية حيث قاربت المائة بالمائة. أهذا هو عين ما حدث في أيام الفتح الإسباني أم هو عين ما حدث ويحدث أيام المستعمرات الغربية.

ولكن، ومع وجود مثل هؤلاء المتطرفين، فإننا وجدنا أناسا يسعون إلى إثبات حوار واتصال جادين مثمرين شغلهم التقريب بين الشعوب وبعث التعاون فيما بينهم في المجال الديني، وهذا، أولا مقطع من تصريح للفاتيكان الثاني (Vatican II) حول الديانات غير المسيحية يقول فيه:".. الكنيسة الكاثوليكية تحث أبناءها، وفق مبدأ التبصر والإحسان، والحوار، والتعاون مع من يتبعون ديانات أخرى، مع إظهار هم الإيمان والحياة المسيحية، تحثهم على أن يقرّوا، ويحفظوا ويطوروا القيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية_الثقافية الموجودة فيهم.

والكنيسة تنظر أيضا بتقدير إلى المسلمين الذين يحبون الله الواحد، الحي القيوم، الرحيم القادر على كل شيء، خالق السموات والأرض الذي خاطب عباده (الوحي). وهم (المسلمون) يسعون إلى أن يخضعوا لأوامر الله بكل جوارحهم حتى وهم في السرّ تماما كما خضع إبراهيم(عليه السلام) لربه والذي يتخذه المسلمون مرجعا لهم بكل طواعية. ومع أنهم لا يعترفون بألوهية عيسى(عليه السلام) فهم يحترمونه كرسول؛ ويشرّفون أمه البتول مريم (عليها السلام)... وفوق هذا، فهم ينتظرون اليوم الآخر، يوم البعث حيث يجزي الله كل المبعوثين. ويقدّرون الحياة الخلقية ويعبدون الله خاصة بإقامة الصلاة وأداء الزكاة والصوم.

وإذا كان قد ظهر عبر العصور خصومات وعداوات بين المسيحيين والمسلمين، المجمّع يحث الجميع على أن ينسوا الماضي ويجبروا أنفسهم وبإخلاص على التفاهم المتبادل، وكذلك على حفظ وتطوير،معا، ولصالح الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والقيم الأخلاقية، والسلم والحرية..."(Vatican II, sans date).

هذا عن المسيحيين. أما عن المسلمين فالدعوة إلى الحوار أو ممارسته ليستا وليدة اليوم وقد مارسه الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال مع يهود يثرب وتأسى به فيما بعد نظار المسلمين وباحثيه.. وهذا مقطع من رسالة كان قد بعث بها السيد أحمد طالب الإبراهيمي إلى الباستور جاك بومون J.Beaumont في 7 أفريل 1961 يضبط من خلالها شروط نجاح الحوار وآدابه والنقاط التي ينبغي الاستثمار فيها أو التحاور حولها..فيقول:" في الآونة هذه، أقول لك فقط بأنه، وفي تقديري:

1) لا يوجد حوار من دون معرفة واحترام متبادل. لهذا، يصعب علينا، نحن الذين نحب ونحترم المسيح(عليه السلام) أن نرى مثلا أستاذا مسيحيا يقارن القرآن "بالجثة الهامدة".

2) الحوار بين مؤمنين من ديانات مختلفة ليس ممكنا إلا إذا تخلّصوا من الرغبة في تحويل الآخر إلى ما هم عليه من اعتقاد.

3) الحوار المسيحي_الإسلامي المقصور على المجال الديني ، ينتهي في الغالب إلى مأزق أو إلى سوء تفاهم. انطلاقا من مقدمات مختلفة ، كان ينبغي عليهم التركيز على ما يوحّدهم وليس على ما يفرّقهم من دون أن يقعوا في فخ التطابق في الرؤى

4) فالحوار المسيحي_الإسلامي يكون مثمرا بالفعل عندما يتخذ كنقطة انطلاق احترام الذات الإنسانية وكنقطة وصول الثقافة، التحصيل الثقافي والبعد الحضاري.."(Revue esprit,1964).

وهذا مقطع من نص حرّره فريق من المسلمين والمسيحيين بتنشيط من السيد شاطي رئيس علماء المسلمين بكازابلانكا بالمغرب يلخّص أهم النقاط التي يمكنها أن تقوّي التقارب بين الفريقين، فيقول، في إطار ما هو مشترك بيننا:"...أقترح وباختصار النقاط الآتية التي يمكنها أن تحقق هذا الحلم (التقارب والتعاون):

- رغم عدم التطابق السهل، علينا أن نأخذ بجدية ما يجمعنا: الإيمان بالإله الواحد، الخالق ، الرحيم الذي تكلّم عن طريق الرسل ، وباليوم الآخر وبالدعوة إلى تعظيم الله بالمحبة والطاعة، والصلاة،إلخ.
- أن ندعو معا دوريا.

- أن نقبل بعضنا البعض ونتبادل الاحترام مع اختلافنا : لا للفكر المموه بالروح الدعائية(التبشيرية) أو التبريرية. ولكن بذل الجهد لمعرفة الآخر بعمق؛ والاهتمام بالاستماع إلى الآخر وفهمه بدلا من أن نتكلم ونفهم الآخر..."(Michel B. 1966) إلى غيرها من اقتراحات أخرى تصب كلها في إطار التعاون المتبادل لصالح الإنسانية.

في الأخير نقول: الحوار، إذا ما استخدم في إطار بعده الإنساني، هو الوسيلة الحضارية الكفيلة بتقريب الشعوب وتعرفها عن بعضها البعض ونشر الحقيقة وربما تحقيق عالميتها وهو أمر مشروع لكل فكر، حر واع ومسؤول، يدعي امتلاك الحقيقة، ويشعر بالآخر كما يشعر بذاته، سلاحه في ذلك قوة الحجة العقلية لا حجة القوة المادية . أما من يوهم الآخر بأنه محاور متحضّر وينقل أفكاره أو أنموذجه الاجتماعي إلى الآخر عبر التهديدات أو على ظهر الدبابات وفوق جماجم الأحرار، بل يذهب إلى حد إستغباء الآخر في ظل الاستخدام المغالط للمصطلحات او المفاهيم، ذلك كأن يشعره بأنه جاء ليحرره من الإرهاب أو الإستبداد، ولا يستفيق هذا الآخر إلا وقد سلب منه كل شيء، ولنا فيما يحدث في العراق اليوم مثلا أظهر مثال حي على ذلك . ومن يمنّي الآخر بالنهضة و التحرر ولا يصدّر له سوى القشور وما يدمّره به ويستولي على ثرواته مبقيا إياه في التخلف أبدا ، نقول له إن الشعوب تأبى هذا النوع من الخضوع وهذا الاستبداد المقنع بالديمقراطية وهذا الاستغباء، وإن حدث فهو أمر عارض ذلك أن ما يحقق بالقوة فهو كالسراب ما يفتأ أن يسترد بالقوة، ولعل المقاومات هنا وهناك لكل استدمار ولما يسمى اليوم بالعولمة أو "الأمركة" خاصة في جانبها الثقافي، وما العراق أو الاتحاد الأوروبي إلا ضرب من ضروب المقاومات عبر العالم اليوم فضلا عن شعوبه، لخير دليل وأكبر شاهد على ذلك.

المصادر والمراجع

[1]Michel Bon, Le sens du dialogue, In Le dialogue ET les dialogues, Centurion, Paris, 1966, P 214.
[2]Berrada Med., Dialogue entre l'occident et le Tiers-Monde , In Le dialogue et les dialogues, P. 112.
[3]Michel Bon, Le sens du dialogue, P.222.
[4]Deleuze G., Dialogues, Flammarion, Paris, 1966, P.8.
[5]Michel Bon, Le sens du dialogue, PP. 218, 222.
[6]Ibid, P.223.

[7] القرآن الكريم، سورة الرعد، الآية 11.
[8] القرآن الكريم ، سورة الزخرف، الآية 22،23

[9]Michel Bon, Le sens du dialogue, P.215.
[10]Ibid. P.222.
11Ibid. P. 225.
12Ibid. P.227.
13Ibid. P.228.
[14]Frank Perriez . Le dialogue des Nations dans la guerre et dans la paix. In Le dialogue et les dialogues. P. 111.
[15] Michel Bon , Le sens du dialogue, P. 215.
[16] Ibid. , P.220.
[17] Ibid. , PP.220,221.222.
[18] Descartes R.. Discours de la méthode. Suivis de: Les passions de l'ame. Booking international, 1995, P.15.
[19] Aristote. La métaphysique. LIV.IV..Trad. Par Alexis Pierron et Charles Zévot, Ebrand., Librairie-Editeur. Paris, 1940, P.114.
[20] Frank Perriez , Le dialogue dans la guerre et dans la paix. in Michel Bon. Le dialogue et les dialogues, P.106.
[21] انظر ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1979، ص 141 وما بعدها.

[22] Michel Bon. Le sens du dialogue. In Le dialogue et les dialogues.. P. 215.
[23] Une conférence sur l'Algérie à Rome citée par: Didier Julia, Dictionnaire de la philosophie. Larousse. Paris. 1964. P. 231.
[24]Frank Pérriez. Le dialogue des nations dans la guerre et dans la paix, In le dialogue et les dialogues. P. 111.
[25] روجي غارودي، حوار الحضارات، ترجمة د/ عادل العوّا، منشورات عويدات، ط2،بيروت، 1982، ص 97.
[26] أنظر المرجع نفسه ، ص58 وما بعدها.
[27] أنظر المرجع نفسه، ص 32.
[28] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 256.
[29] القرآن الكريم، سورة النحل، الآية 125.
[30] محمد إبراهيم الفيومي، رسالة في الحوار الفكري بين الإسلام والحضارة، عالم الكتب، القاهرة، بدون تاريخ، ص 37.
[31] الكندي، رسالة إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، تحقيق الدكتور عبد الهادي أبو ريدة، ص98 ومابعدها.

[32] Veuillot Louis, Mélanges, Dans dictionnaire de la bélise de Betchtel et carrière, Ed. Laffont. P. 29.
[33]Declaration sur les religions non chrétiènnes de Vatican II, Documents conciliaires,2. Ed. du centurion. P. 215.
[34]Voir Revue Esprit, Avril 1964. Cité par : M. Bon. Le dialogue et les dialogues, PP.207.
[35]Bon Michel. Le dialogue et les dialogues, P.207.